عمارة الأزهر*

د. عبد الرحمن زكي

نحن الآن في ميدان الأزهر أمام الباب المزدوج، الذي أنشأه الأمير عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٦٧هـ – ١٧٥٣م أمام الباب، وكان يعلوه كتاب، وتجاوره مئذنة وقد هدمها، وفكت مباني الباب ثم أعيد بناؤها في سنة ١٨٩٦ عند توسعة الشارع وبناء الرواق العباسي، وبإنشاء هذا الباب ضمت المدرستان الطيبرسية والأقبغاوية إلى الأزهر.

شيد الأزهر القائد جوهر الفاطمي في الجنوب الشرقي من مدينة القاهرة، وعلى مقربة من القصر الكبير الذي أقيم حينذاك بين حي الديلم في الشمال وحي الترك في الجنوب، فهو أول جامع أنشئ بمدينة القاهرة الفاطمية. بدأ جوهر في إنشائه في ٢٢ جمادي الأولى سنة ٣٥٩هـ – ٢ أبريل سنة ٩٧٠م، وفرغ منه في رمضان سنة ٣٦١هـ – ٩٧٢م. والمعروف أن أول جمعة صلاها الفاطميون في الأزهر كانت يوم ٦ رمضان سنة ٣٦١ هـ.

وجامع الأزهر اليوم، ليس كله بالجامع الفاطمي الأصلي، بل هو حصيلة إضافات من الآثار ضمت إليه في أزمان متتابعة، وسنبدأ بالحديث عن تخطيطه وزياداته وزخارفه في العصر الفاطمي.

* عن كتاب (الأزهر وما حوله من الأثار) للمؤرخ الدكتور عبد الرحمن زكي.

الأزهر في العصر الفاطمي:

كان مخططه الأفقي زمن بنائه مكونًا من ثلاثة إيوانات حول الصحن، الشرقي منها مكون من خمسة أروقة، المشرف منها على الصحن يقوم على أكتاف، أما الأروقة الباقية فمن عمد رخامية. وفي كل من الجانبين القبلي والشمالي ثلاثة أروقة، المشرف منها على الصحن قائم على أكتاف أيضًا. أما الجدار الغربي فليست به أروقة، ويتوسطه الباب العام، وكانت تعلوه المنارة.

ويرجح أن هذا الباب كان بارزًا عن الجدار، وبأعلى الجدران شبابيك جصية مفرغة بأشكال هندسية، وعقودها مستديرة، أحيطت بإفريز مكتوب بالخط الكوفي المزهر، وما زالت بقاياه موجودة بالإيوان الشرقي للجامع. ويشطر الإيوان الشرقي مجاز متجه مباشرة إلى المحراب، ارتفعت عقوده وسقفه عند مستوى ارتفاعات الجامع، وقد حليت حافة عقود هذا المجاز بكتابات كوفية، وحليت أيضًا خواصرها بزخارف نباتية مورقة منوعة. وعقود هذا المجاز هي الباقية فقط من عقود الجامع القديمة، أما باقي العقود بالمسجد – عدا العقود التي حول الصحن– فقد تغيرت غير مرة. وينتهي هذا المجاز إلى المحراب القديم الحافل بالزخارف والكتابات الكوفية.

ويعلو المحراب[1] قبة حلت محل قبته القديمة، وكان ينتهي طرفا هذا

---

(1) لما بلغ البناء إلى المحراب كتب بدائرة القبة على يمنة المنبر والمحراب (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)، مما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلي، وذلك في ستين وثلثمائه.

الإيوان بقبتين غير موجودتين الآن، وكان للجامع ثلاثة أبواب في جدرانه القبلية والشمالية والغربية.

هذا هو تخطيط الجامع الذي بناه جوهر الصقلي لمولاه المعز لدين الله، والمنبر الأصلي القديم الذي أنشئ بالأزهر عند بنائه نقل فيما بعد إلى جامع الحاكم بأمر الله. وأخذ الخليفة يخطب مرة في الأزهر، ومرة في الجامع الحاكمي، ومرة في جامع عمرو بن العاص، ومرة في جامع أحمد بن طولون. وفي حوالي عام ٤٠٠هـ-١٠٠٩م جدد الحاكم بأمر الله الأزهر، وأوقف عليه الأوقاف ثم تبعه من بعده أهل الخيرات، فأصبح يعتمد على أوقاف عظيمة.

وفي عام ٤١٧هـ (١٠٣٥-٣٦م) جدد الجامع الأزهر في خلافة المستنصر بالله معد بن الظاهر لإعزاز دين الله، ثم اقتفى أثره حفيده المنصور أبو علي الآمر بأحكام الله، الذي تولى الخلافة سنة ٤٩٥هـ-١١٠٢م، فأحدث في الأزهر جديدًا. وفي متحف الفن الإسلامي لوح من الخشب كان يعلو محراب الأزهر الذي بناه المنصور أبو علي[٢].

ولما تولى أبو الميمون الحافظ لدين الله عبد المجيد سنة ٥٢٤هـ-١١٢٩م، جدد في الأزهر أبنية وأنشأ فيه مقصورة (فاطمة الزهراء)، التي تجاور الباب الغربي الذي في مقدمة الجامع بداخل الأروقة. وقال بعض رجال الآثار أنه أضاف رواقًا يحيط بالصحن من جوانبه الأربعة، مكونًا من

---

(٢) كتب على هذا المحراب (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين. أمر بعمل هذا المحراب المبارك برسم الجامع الأزهر سيدنا المنصور أبو علي إمام الآمر بأحكام الله).

عمد رخامية فوقها عقود فارسية الطراز وقبة رشيقة بأول المجاز. ولما انقضت الدولة الفاطمية كانت مساحة الأزهر ١٣٠٠٠ ذراع، أي أقل من نصف مساحته الحالية، وقد أصبحت اليوم ٢٦٣٣٣ ذراعًا (١٢٠٠٠ متر مربع).

هذا ما كانت عليه عمارة الأزهر في أيام الفاطميين، حتى بادت دولتهم من مصر على يد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى في عام ٥٦٧هـ-١١٧١م. ثم عطل إقامة الجمعة فيه حتى تولى الملك الظاهر بيبرس حكم مصر فأعادها إليه.

الأزهر في العصر المملوكي:

جمع الأمير عز الدين أيدمر الحلي من أمراء الظاهر بيبرس، بعد ما تبدد من أوقاف الأزهر وانتزعه من أيدي غاصبيه، ثم جدد سقوف الجامع وتبليط أرضيته وفرشه وكسوته. وكان للأمير بدر الدين بيلبك الخازندار الظاهري يد محمودة في هذا التجديد، فأنشأ رواقًا كبيرًا وقف عليه المزارع والعقار، واشترط أن ينفق من غلاتها على من ينقطع في هذا الرواق لقراءة القرآن الكريم وإسماع كتب السنة المحمدية، وتدريس فقه الإمام الشافعي (رضي الله عنه). وبعد أن تم تجديد الأزهر، أراد الأمير عز الدين أيدمر أن تعاد الخطبة في منبره إلى ما كانت عليه من قبل، فمن الفقهاء من أجاز ومنهم من منع. وفيمن أجاز قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي، فعمل الأمير عز الدين بقول من أجاز. وكان لإعادة الخطبة إلى الأزهر حفلة عظمى في هذا الجامع، ثم في دار الأمير عز الدين، وكان ذلك على قول ابن الفرات في يوم الجمعة ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٥هـ - ١٢٦٦م.

وفي عام ٧٠٢هـ – ١٣٠٢م، حدثت زلزلة عنيفة، خربت قسمًا عظيمًا من مصر والشام، وأصابت الأزهر وبعض مساجد القاهرة بأذاها، فتقاسم الأمراء عمارتها، وأخذ الأمير سلار من رجال المماليك البحرية على نفسه عمارة الأزهر وتجديده. وفي عام ٧٠٩هـ – ١٧٠٩م انتهى الأمير علاء الدين طيبرس الخازنداري نقيب الجيوش من إنشاء مدرسته، وجعلها مسجدًا (تعرف بالمدرسة الطيبرسية) وقرر بها درسًا للفقهاء الشافعية، وتأنق في رخامها وتذهيب سقفها وفرشها ببسط منقوشة بشكل المحاريب، وجعل في المدرسة خزانة كتب[٣].

وفي عام ٧٢٥هـ – ١٣٢٥م جدد الأزهر القاضي نجم الدين مُحَمَّد بن حسين الأسعردي[٤] محتسب القاهرة. وفي عام ٧٤٠هـ .–١٣٣٩م انتهى الأمير أقبغا علاء الدين الواحدي من إنشاء مدرسته المتصلة بالمدرسة الطيبرسية، وقيل إنه لم يؤسس بنيانها على التقوى، فأخذ أرضها بغير رضى من أصحابها وأنشأها بالعسف. وقد وقف عليها أوقافًا دارة، وجعل لها منارة هي إحدى المنارات الخمس الأزهرية.
وفي عام ٧٦١هـ – ١٣٦٠م جدده الأمير الطواشي سعد الدين بشير

---

(٣) مما يدل على إخلاص هذا الأمير النية لله فيما تقرب إليه به من عمله هذا، فإنه لما فرغ من بناء مدرسته أحضر إليه مباشروه حساب مصروفاتها، فلما قدم إليه استدعى طست فيه ماء وغسل أوراق الحساب بأسرها من غير أن يقف على شيء منها، وقال: شيء خرجنا عنه لله تعالى لا نحاسب عليه. محب الدين الخطيب، الأزهر، ص١٦ (ألحقت هذه المدرسة والمدرسة الأقبغاوية بالأزهر فيما بعد).

(٤) من سعرد في أرمينية.

الجمدار الناصري، لما سكن بقرب الأزهر، فأستاذن الملك الناصر حسن بن مُحَمَّد بن قلاوون، فسمح له بأن يقوم بالإصلاح. تتبع جدرانه وسقوفه بالتجديد حتى عادت كأنها جديدة، وبيضه وبلطه، وأنشأ على بابه الجنوبي حانوتًا لتسبيل الماء العذب، وعمل فوقه مكتبًا لإقراء أيتام المسلمين، ورتب فيه دروسًا لفقهاء الحنفية، وأنشأ لفقراء المجاورين مطبخًا يوميًا، وأوقف على ذلك أوقافًا جليلة.

وفي سنة ٨٠٠هـ (١٣٩٧ – ٩٨م) سقطت منارة الجامع، فأعاد بناءها الظاهر أبو سعيد برقوق بن آنص من ماله الخاص. ولم تدم هذه المنارة طويلًا، فقد سقطت في ٨١٧هـ (١٤١٤ – ١٤١٥م) ثم في عام ٨٢٧هـ (١٤٢٣ – ١٤٢٤م)، وكان يعاد إصلاحها في كل مرة. وأنشأ السلطان برقوق صهريجًا للماء في صحن الجامع، وعمل فوقه مكانًا مرتفعًا له قبة ويسيل فيه الماء، كما أنه أقام ميضأة. وفي سنة ٨٤٤هـ (١٤٤٠ – ٤١م) شيد جوهر القنقبائي الحبشي الخازندار المدرسة الجوهرية عند الباب الشمالي الصغير للأزهر تجاه زاوية العميان، وبداخلها مدفن منشئها.

وفي حكم السلطان الملك الأشرف أبي النصر قايتباي (٨٧٢ – ٩٠١هـ) (١٤٦٧ – ١٤٩٦م) أحدث تجديدًا شاملًا في الجامع، فأنشأ باب المزينين، المنارة التي هناك، وفسقية وسبيلًا وميضأة، وأحدث صهريجًا تجاه باب المغاربة، وشيد على باب الجامع مكتبًا، ونقش في الحجر على الباب بعد كتابة كوفية يعسر قراءتها: "إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى، لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله، نصر من الله وفتح قريب، بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بإنشاء هذا الباب والمئذنة الشريفة مولانا السلطان

الأشرف قايتباي بتاريخ شهر رجب الفرد ثلاثة من سنة..". كما أنه جدد رواق المغاربة، ونقش على بابه: "أمر بتجديده مولانا وسيدنا السلطان الملك الأشرف قايتباي، على يد الخواجا مصطفى بن الخواجا محمود، غفر الله لهما".

ولقايتباي نقش على أحد المحاريب وبعض الشبابيك، وكان ذلك في سنة ٩٠٠هـ – ١٤٩٥م. وفي سنة ٩٠٦هـ (١٥٠٠ – ١م) قام السلطان قنصوه الغوري ببناء مئذنته ذات الرأسين داخل باب المزينين، كما أنه رتب في رمضان ٦٧٠ دينارًا لمطبخ الأزهر.

الأزهر في أيام العثمانيين:

لما دخل السلطان سليم القاهرة ١٥١٧م الأزهر صلى فيه، وأمر بتلاوة القرآن فيه، وتصدق على فقراء المجاورين. وسنذكر فيما يلي أهم عمليات التجديد في ذلك العصر:

فى عام ١٠٠٤هـ – ١٠٩٥/١٠٩٦م جدد الشريف مُحَمَّد باشا والي مصر بعض أجزاء الأزهر.

وفي عام ١٠١٤هـ – ١٦٠٥م عمر حسن باشا والي مصر مقام الحنفية أحسن عمارة وبلطه.

وجدد الأمير إسماعيل بك القاسمي ١١٣٦هـ – ١٧٢٣م سقف الجامع.

وفي سنة ١١٤٨هـ – ١٧٣٥م أنشأ الأمير عثمان كتخدا زاوية العميان، وجدد رواق الأتراك ورحبة ورواق السليمانية (الأفغانيين)، وزاد

في رواق الشوام، ورتب لذلك مرتبات من وقفه.

وفي سنة ١١٦١هـ - ١٧٤٨م تقلد ولاية مصر أحمد باشاكور، وتتلمذ للشيخ حسن الجبرتي (والد الشيخ عبد الرحمن)، فأثبت عدة مزاول لمعرفة المواقيت وضع إحداها في ركن صحن الأزهر على يسار الداخل.

وفي سنة ١١٦٧هـ - ١٧٥٣م أنشأ الأمير عبد الرحمن كتخدا الزيادة التي زادها في الأزهر. قال الجبرتي عنها: أنشأ مقصورة في الجامع مقدار النصف طولًا وعرضًا، ويشتمل على خمسين عمودًا من الرخام، تحمل مثلها من البوائك المقصورة المرتفعة المتسعة من الحجر المنحوت، وسقف أعلاها بالخشب وبنى به محرابًا جديدًا ومنبرًا، وأنشأ له بابًا عظيمًا (يعرف بالدوداري) وهو المشهور بباب الصعايدة، وبنى بأعلاه مكتبًا له قناطر معقودة على أعمدة له من الرخام لتعليم الأيتام، وجعل بداخله رحبة متسعة وصهريجًا عظيمًا وسقاية لشرب العطاش، وعمل لنفسه مدفنًا بتلك الرحبة وجعل عليه قبة معقودة وتركيبة من رخام بديعة الصنع، عليها أسماء العشرة من المبشرين بالجنة، ووصفًا للنبي (ﷺ) وبعض الأشعار. وبالرحبة رواق مخصوص بمجاوري الصعيد المنقطعين لطلب العلم، ومرافق ومنافع ومطبخ ومخادع وخزائن كتب.

وبنى بجانب ذلك الباب (المزينين) منارة، وأنشأ بابًا آخر جهة مطبخ الجامع، وجعل عليه منارة أيضًا، وجدد المدرسة الطيبرسية وجعلها مع

المدرسة الأقبغاوية المقابلة لها من داخل باب المزينين الكبير[٥]، وهذا الباب مؤلف من بابين عظيمين، كل باب بمصراعين، وجعل على يمينه منارة – أزيلت سنة ١٣١٥هـ – وفوقه مكتب وبداخله ميضأة. وزاد في رواق الشوام ووقف عليه، وجدد رواق المكيين والتكروريين، فكان مجموع ما عمله (عبد الرحمن) في الأزهر مما تقصر عنه همم الملوك. وفي مدة مشيخة الشيخ عبد الله الشرقاوي ١٢٠٨– ١٢٢٧هـ/ ١٧٩٣– ١٨١٢م لم يكن لمواطنيه من مجاورى مديرية الشرقية رواق خاص بهم، وإنما يقطنون المدرسة الطيبرسية. واتفق حدوث خلاف بينهم وبين من في المدرسة من الطلبة أدى إلى إخراجهم منها، فأرسل الشيخ الشرقاوي امرأة ضريرة فقيهة تحضر عنده في درسه، إلى عديلة هانم زوجة إبراهيم بك زعيم المماليك، فكلمت زوجها في إنشاء رواق لهؤلاء الطلبة، فكان ذلك سبب إنشاء رواق الشرقاويين.

الأزهر في القرن التاسع عشر:

وفي عام ١٢٢٧هـ – ١٨٠٥–٦م أنشأ الوالي مُحَمَّد علي رواق السنارية، بالتماس الشيخ مُحَمَّد وداعة السناري، فاشترى الوالي ربعًا قديمًا في مكان هذا الرواق وشيده ووقف عليه.

---

(٥) نقش على وجهة الباب من الخارج أبيات مموهة بالذهب، مشتملة على تاريخ بنائه (١١٦٧هـ) وهي:

إن للعلم أزهرًا يتسامى كسماء ما طاولتها سماء
حيك وافاه ذا البناء ولولا منة الله ما تسامى البناء
رب الهوى هداك وأيًا تك نور تهدي به من تشاء

وفي عام ١٩٢٩هـ/ ١٨٦٢– ٦٣م قام السيد أبو بكر راتب باشا بإتمام عمل كان قد بدأه الوالي عباس الأول، فأنشأ رواق الحنفية وأنفق عليه من ماله، وشيد فوقه ثلاث عشرة غرفة للمتقدمين من المجاورين في ذلك الرواق، وجعل له خزانة كتب قيمة.

وفي عام ١٢٩٠هـ – ١٨٧٣م جدد باب الصعايدة وما يعلوه، وأوقفت ابنة الخديو إسماعيل أوقافًا عظيمة على الأزهر.

وفي عام ١٢٩٦هـ – ١٨٧٩م جدد الخديو مُحَمَّد توفيق نحو ثلث المقصورة القديمة مما يلي باب الشوام، وأصلحت المدرسة الأقبغاوية التي تقوم فيها دار الكتب الأزهرية.

الأزهر في العصر الحديث:

وفي عام ١٣١٠هـ – ١٨٩٢–٩٣م قام ديوان الأوقاف بتجديد صحن الأزهر وما بدائرتيه من البائكات ودربزينات المقصورة القديمة، وأصلح باب المزينين وطرقته، والمدرسة الطيبرسية والأقبغاوية. وفي عام ١٣١٤هـ أنشئت في المدرستين المذكورتين دار الكتب الأزهرية. وفي ٢٤ شوال سنة ١٣١٥هـ – ١٨٩٧م احتفل بافتتاح الباب العباسي والرواق العباسي أيام مشيخة الشيخ حسونة النواوي رحمه الله، ثم شمل التجديد الأروقة المتصلة بالسور الجنوبي.

ولعل خير وصف للأزهر هو ما جاء في الخطط التوفيقية (ج٤، ص ١٤– ٢٦)، فقد وصف العلامة علي باشا مبارك بناء الأزهر الذي كان عليه في أخريات القرن الماضي، وحدد أبعاده، وذكر أبوابه ومحاريبه وقبلاته

ودورات مياهه، وأماكن الوضوء، وصحن المسجد ومناراته ومزاوله، وأروقته وصهاريجه.. إلخ.

موجز وصف الأزهر:

إن الجامع في شكله الحاضر بناء فسيح يقوم على أرض مساحتها ٢٦٣٣٣ ذراعًا (١٢٠٠٠ متر مربع) يحيط به سور مربع الشكل تقريبًا، وبه ثمانية أبواب:

في الجانب الغربي المطل على ميدان الأزهر باب المزينين والباب العباسي، والأول باب شامخ من زيادات الأمير عبد الرحمن كتخدا، والثاني أحدثته نظارة الأوقاف عند تأسيس الرواق العباسي نسبة إلى الخديو عباس الثاني.

وفي الجانب الجنوبى باب المغاربة تجاه درب الأتراك، وباب الشوام، وباب الصعايدة الذي أنشأه عبد الرحمن كتخدا.

وفي الجانب الشمالي باب الجوهرية، وهو باب صغير تجاه زاوية العميان، وهو من إنشاء جوهر القنقبائي. وفي الجانب الشرقي باب الحرمين، وهو مقفل أنشأه عبد الرحمن كتخدا، وباب الشوربة وينسب إلى عبد الرحمن أيضًا.

وتعلو أسوار الأزهر وأبوابه خمس مآذن: ثلاثة في داخل باب المزينين: إحداهما الأقبغاوية، والثانية مئذنة قنصوه الغوري وهي أعلى مناراته، والرابعة بجانب باب الصعايدة، والخامسة بباب الشعرية، وكلتاهما من إنشاء كتخدا.

وينقسم حرم الأزهر إلى رواقين: الرواق الكبير وهو القديم، ويلي الصحن ويمتد من باب الشوام إلى رواق الشراقوة. والرواق الجديد الذي أنشأه عبد الرحمن كتخدا ١١٦٧هـ. ويلي الرواق القديم ويرتفع عنه بنحو نصف ذراع، وسقف الرواقين من الخشب المتقن الصنع، وترتكز الباكيات على عمد من الرخام الأبيض، أما الباكيات المحيطة بالصحن فترتكز على أكتاف (دعامات)، والعقود من النوع المعروف بالعقود الدقيقة الزاوية. وكان للجامع عشرة محاريب أزيل أربعة وبقي الآن ستة. ففي الرواق الجديد محرابان: المحراب الكبير الذي أقيمت عليه قبة مرتفعة على ستة عمد، ومحراب صغير من شمال المنبر يعرف بقبلة الشيخ الدردير.

وفي الرواق القديم محراب واحد يعرف بالقبلة القديمة، وإن لم يكن محراب الجامع الأصلي، وعليه قبة قديمة. وكان في صحن الجامع أربعة محاريب صغيرة وللجامع منبر واحد وهو حديث. وبالأزهر ما يزيد على ٣٨٠ عمودًا من الرخام الجميل، جلبت تيجانها من المعابد الوثنية والكنائس القديمة، من الجيزة وأبي صوير وسقارة وميدوم ودهشور.. إلخ.